الخالدون

١

عبد الرحمن الغافقي

شهيد بلاط الشهداء

تأليف

محمد علي قطب

المكتب الإسلامي

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٠١هـ - ١٩٨١م

المكتب الإسلامي

دمشق : ص.ب ٨٠٠ - هاتف : ١١١٦٣٧ - برقياً : إسلامي

بيروت : ص.ب ١١/٣٧٧١ - هاتف : ٤٥٠٦٣٨ - برقياً : إسلامياً



قال اللهُ تعالى :

﴿إنَّ الَّذين سَبَقَتْ لهُم مِنّا الحُسْنى أُولئِك عَنْها مُبْعَدُون﴾

صَدَقَ الله العظيم

وقالَ رَسُولُ اللهِ «ﷺ» :

(الجَنَّةُ تَحْتَ ظلال السُّيُوف)

وصَدَقَ رسُوله الكريم

تَوطِـئَـة

كُنَا طُلاَّباً صغاراً نَحْفَظُ نشيداً مدرسيّاً فيه ذِكْرُ «الغافقي» و «الأنْدَلُس» ... ،

كنّا نردّده دون أن ندرك أبعاد معانيه ، وإن كانت تلامس شغاف قلوبنا بعواطف وأحساسيس مُجَرَّدة .

وقد علق الإسم بأذهاننا وتعمّق في وجداننا مع مرور الزمن حتى وعينا الأشياء والأحداث ووقائع التاريخ .

ولقد أقبلت على درس شخصية «الغافقي» بعمق وفهم وتدبُّر فبرز لي كواحد من أعظم الشخصيّات الإسلامية ، لا يقل عن صحابة رسول الله «ﷺ» الرُّوّاد الأوائل في الفتح والغزو والجهاد .

وهو –أي «الغافقي» رضي الله عنه– من التّابعين الذين حفظوا حديث رسول الله «ﷺ» ورُووه بأمانة وصدق .

تولّى الإمارة لا فرضاً ولا إجباراً ولا قسراً ؛ لا طمعاً بها ولا طلباً لها ، ولكن باختيار المسلمين وإجماعهم .

وأحسنَ القيادة ، في الحكم والإدارة وميدان القتال ، فأثبت كفاءة وأبلى بلاء حسنا .

ثم ختم الله حياة الرجل العظيم بأحسن خاتمة وأكرمها ، خاتمة الشهادة .



أصله ونسبُهُ

هو: عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي - العكّي - يمنيّ الأصل. من قبيلة «عكّة» تلك القبيلة التي أعطت الإسلام كثيراً من رجالاتها في ميادين العلم والجهاد؛ وكان «عبد الرحمن» من أبرزهم.

ولد ونشأ وترعرع في أرض اليمن. وارتوى من رحيق الإسلام أصفى التقاليد. وحفظ الحديث الشريف عن كثيرين من الصحابة. وعلى رأسهم الصحابيّ الجليل «عبد الله بن عمر» -رضي الله عنهما-؛

ثم راض نفسه على الفروسية وفنون القتال. وتدرّب على أيدي المشاهير حتى بَرَعَ براعةً عظيمة. وأجاد القيادة ورسم الخُطط.

في الشام

وَفَدَ على دمشق في أيام الخليفة «سليمان بن عبد الملك» وتقدّم في مراتب ووظائف الخدمة حتى اشتهر وحاز قصب السَّبق على كثيرين ، وعلى إعجاب الخليفة نفسه . فقدَّمه على غيره وقَلَّده أرفع المراتب . ولكن «عبد الرحمٰن» كان توّاقاً إلى ميادين الجهاد ، و يعتبر بقاءه في حيّز القصر وبلاط الخليفة كأنّه في سجن ضيّق لا يتفق مع رغباته وإمكاناته وقدراته ، وتمنياته في خدمة الأُمّة والتقرُّب إلى الله تعالى .

في الأندلُس

وكانت الأندلس في ذلك الحين مطمع النظار المتطلّعين إلى الجهاد ، رغم وجود جبهات أخرى مفتوحة للغزو والتبشير بكلمة الله و بدينه الحق ، إلاّ أن الأندلس كانت تشد الأنظار أكثر . بسبب طبيعتها الجميلة وغناها الوفير ، وغنائمها الكثيرة .

أما «عبد الرحمٰن» فلم يكن يرغب الأندلس لغرضٍ دنيوي أبداً . أو مطمع مادي ... . فإلى جانب رغبته في الجهاد في سبيل الله كانت تشدّه إلى الأندلس محبَّة الإرتفاق مع أبناء قبيلته الغافقية الذين تواجدوا هناك بأعداد وفيرة .

فاستأذن الخليفة في المضيّ إلى الأندلس ، فأذن له .

فانطلق «عبد الرحمن» إلى غايته يحدوه أملُ رضوان الله تعالى. وكسْب رضاه.

ولما وطئت قدماه تلك الأرض النائية انخرط في صفوف الجند المقاتلة ومجابهة الأعداء؛ وأظهر كلّ براعةٍ وإقدام وجرأة مما لفت إليه الأنظار وجعله يتبوأ مراكز القيادة، وفي أركان حرب القيادة العامة. يؤخذ برأيه ووجهة نظره ويستشار في كثير من المواقف والأمور.

ومما جعله موضع الثقة. خلقه ودينه وتقواه وورعه. وعلمه ونْصحه.

أمير الأندلُس

بعد وفاة سليمان بن عبد الملك تولّى الخلافة «عمر بن عبد العزيز» الذي اختار لولاية الأندلس «السَّمح بن مالك الخولاني».

وقدم «السَّمح» الى الأندلس في رمضان سنة «١٠٠» هـ، مزوَّداً بنُصح الخليفة في أن يتبع الرفق والعدل، وأن يقيم الحق والدين.

وكان «السَّمح» حاكماً وافر الخبرة والحكمة والعقل، فقبض على زمام الأمور بحزْم وهمةٍ، وبادر بقمع المنازعات والفتن. وإصلاح الإدارة والجيش، وخمّس أراضي الأندلس التي فتحت عنوةً. (أي مَسَحَها وقَرَّر عليها الخراج بنسبة الخُمس).

وأنشأ قنطرة «قرطبة» الشهيرة، على نهر الوادي الكبير، تحقيقاً لرغبة أمير المؤمنين «عمر بن عبد العزيز»؛ وأبدى في جميع أعماله حَزْمًا ورفقاً وعدلاً، فالتَفَّ الزعماء حوله، وخبت نار الفتنة وهدأت الخواطر، واستقر النظام والأمن.

وكان «السَّمح» فوق كفايته الإدارية جندياً جريئاً وقائداً عظيماً. فلما انتهى من مهمّة التنظيم والإصلاح تأهب لاستئناف الغزو، وتوطيد سلطان الخلافة في الولايات الجبلية الأندلسية، والقواعد الشمالية التي لم يستطع أن يتمم إخضاعها الولاة الذين سبقوه.

فزحف على (سبتمانيا) في جيش ضخم، واستعاد كثيرا من المدن والحصون والأقاليم، وشتت كل قوةٍ تصدّت له، وكان ذلك في سنة (١٠١) هـ.

وأقام في تلك المقاطعات حكومة إسلامية، ووزع الأراضي بين العرب والسكان، وفرض الجزية على النصارى، وترك لهم حرية الاحتكام إلى شرائعهم.

ثم زحف نحو الشرق ليغزو مقاطعة «أكوتين» فقاومه أهلها مقاومة شديدة ولكنه مزّق جموعهم وانتصر عليهم وتابع الزحف إلى «تولوز».

وفي ظاهرها إصطدم بجيش كبير من الفرنجة، فنشبت بين

الفريقين معركة هائلة سالت فيها الدماء غزيرة ، وكثر القتل في الجيشين ، وأبدى المسلمون - رغم قلتهم - شجاعة خارقة ، وتراوح النصر بين الفريقين لكن «السَّمح» سقط قتيلاً من فوق جواده ، فاختل نظام فرسان المسلمين ، ووقع الإضطراب في الجيش كله ...

وهنا يَبْرُزُ دور الغافقي - عبد الرحمٰن بن عبد الله - كبطل وقائد وحاكم .

فعلى أثر مقتل «السَّمح» واستشهاده ، اختار الجيش «عبد الرحمٰن» للقيادة العامة ، فارتد «عبد الرحمٰن» بالجند إلى الجنوب توّاً ، واستنقذهم من الهزيمة .

وأقره الجماعة والياً على الأندلس حتى يأتي الحاكم الجديد .

ولبث «عبد الرحمٰن» في منصبه فترةً وجيزة ، ولكنه استطاع خلالها أن يخمد بوادر الخروج التي ظهرت في الولايات الجبلية الشمالية ، ويخمد الفتنة ويصلح الأمور حتى قدم الوالي الجديد .

وعاد «عبد الرحمٰن» إلى صفوف القيادة ، دونما أدنى تذمُّر أو تآمر أو طمع في منصب ، عاد جندياً مقاتلاً همه الأول والأخير أن يقاتل ويجاهد في سبيل الله ؛ وأن ينصر دين الله ، وأن يحقق كلمته بين الناس في الأرض .

الولاية الثانية

مضت عشر سنوات على «عبد الرحمن» بين ولايته الإختيارية الجماعية الأولى عام (١٠٣) هـ ، وبين ولايته الثانية عام (١١٣) هـ. ولقد مرّ بالأندلس ولاة كثيرون بين الفترتين، بلغ عددهم ستّة، أدى كل منهم واجبه بأمانةٍ وإخلاص.

ولكن هذا التعاقب واختلاف العقلية الحاكمة، وأسلوب كل من القادة كان سبباً في تفاقم الخلل والاضطراب والاختلاف بين الزعماء والقبائل وتخلّف المسلمين عن الجهاد والغزو وانشغالهم بقضاياهُم الداخلية، وفضّ منازعاتهم.

وجاء تعيين «عبد الرحمٰن الغافقي» من قبل والي إفريقية «عبيدة بن عبد الرحمٰن السّلمي» بمصادقة الخليفة «هشام بن عبد الملك» - في شهر صفر سنة (١١٣) هـ. فارتاحت له النفوس واطمأنت القلوب.

كان «عبد الرحمٰن» -رضي الله عنه- جندياً عظيماً، ظهرت مواهبه الحربية في كل الغزوات والمعارك التي خاض غمارها.

وكان حاكماً قديراً بارعاً في شؤون الحكم والإدارة، ومصلحاً كبيراً يضطرم رغبة في الإصلاح.

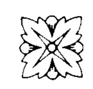
وكان بلا ريب أعظم ولاة الأندلس وأقدرهم جميعاً، وتجمع الروايات الإسلامية، ومصادر التاريخ، على تقديره

والتنويه برفيع خلاله ومناقبه. والإشادة بعدله وحلمه وتقواه.

فرحَّبَتِ الأندلس قاطبة بتعيينه. وأحبّه الجند لعدله ورفقه ولينه، وجمعت هيبته كلمة القبائل، وساد الوئام في الإدارة والجيش. وخمدت نار الفتنة بين العشائر من قيسية ويمنية واستقبلت الأندلس عهداً جديداً.

الحاكم المصلح

بدا «عبد الرحمن» بزيارة الأقاليم المختلفة، فنظّم شؤونها وعهد بإدارتها إلى ذوي القضاء والعدل، وقمع الفتن والمظالم ما استطاع، ورَدّ إلى النصارى كنائسهم وأملاكهم المغصوبة وعدّل نظام الضرائب. وفرضها على الجميع بالعدل والمساواة. وقضى الشطر الأول من ولايته في إصلاح عوامل الإضطراب والخلل. وعُني بإصلاح الجيش وتنظيمه عنايةً خاصة. فحشد الصفوف من مختلف الولايات، وأنشأ فرقًا قويةً مختارةً من فرسانِ البربر بإشراف نخبة من الضباط العرب، وحصّن القواعد والثغور الشمالية. وتأهب لإخماد كل نزعةٍ إلى الخروج والثورة.



ثم بدأ الفرنج في الولايات الشمالية بالتحرك لمهاجمة المواقع الإسلامية ، وكان «عبد الرحمٰن» توّاقاً إلى الإنتقام لمقتل «السَّمح ابن مالك» وهزيمة المسلمين عند أسوار «تولوز» ويتخذ العدّة منذ بدء ولايته لاجتياح مملكة الفرنج كلها.

فلما رأى الخطر محدقاً بالولايات الشمالية لم ير بُدّاً من السّير إلى الشمال قبل أن يستكمل أهبته.

على أنه استطاع أن يجمع أعظم جيشٍ سَيَّره المسلمون إلى (غاليس) —فرنسا— منذ الفتح.

وفي أوائل سنة (١١٤) هـ سار «عبد الرحمٰن» إلى الشمال مخترقاً ولاية «أراغون» و«ناڤار» وعبر جبال «البيرينه»، ودخل فرنسا في فصل الربيع. وزحف توّاً على مدينة (آرل) الواقعة على نهر (الرون) لتخلُّفها عن أداء الجزية واستولى عليها بعد معركة عنيفة نشأت على ضفاف النهر بينه وبين قوات الدوق (أودو).

ثم زحف غرباً وعبر نهر (الجارون) وانقضّ المسلمون كالسيل على ولاية (أكوتيه) يثخنون في مدنها وسهولها؛ فحاول (أودو) أن يوقف زحفهم والتقى الفريقان على ضفاف نهر (الرون). لكن الدوق هُزم هزيمة فادحة، وتمزق جيشه شرَّ تمزيق، وفرَّ في نَفَرٍ من صحبه إلى الشمال، وسقطت (أكوتيه) كلها في يد المسلمين.

ثم ارتد «عبد الرحمن» نحو نهر (الرون) مرةً أخرى ، واخترق الجيش الإسلامي (برغونية) واستولى على مدينتي (ليون) و (بيزانسون) ، ووصلت سراياه إلى (سانس) ، التي تبعد عن (باريس) مائة وخمسين كيلومترًا.

وأيضا... ارتد «عبد الرحمن» غرباً إلى ضفاف نهر (اللُّوار) ليتم فتح هذه المنطقة...، ثم يقصد إلى عاصمة الفرنج.

وتمّ هذا السير، وافتتح «عبد الرحمن» نصف (فرنسا) الجنوبي كله من الشرق إلى الغرب في بضعة أشهر فقط !!!

بلاط الشهداء ومَصْرَع البطل

انتهى الجيش الإسلامي بقيادة «عبد الرحمن» في زحفه إلى السهل الممتد بين مدينتي (بواتيه) و (تور) ، فاستولوا على الأولى ونهبوا كنيستها الشهيرة ، ثم هجموا على الثانية واستولوا عليها أيضاً وخربوا هي الأخرى كنيستها.

في ذلك الحين كان الجيش الفرنجي بقيادة (شارل مارتل) قد بلغ نهر (اللوار) دون أن يشعر المسلمون بقدومه بادىء بدء ؛ كما أخطأت الطلائع الإسلامية تقدير عَدَدِه وعُدَّته.

فلما أراد «عبد الرحمن» أن يفتح (اللوار) لملاقاة العدو على ضفته اليمنى ، فاجأه (شارل مارتل) بجموعه الجرارة. وألفى

«عبد الرحمن» جيش الفرنجة يفوقه في الكثرة، فارتد من ضفافه ثانية إلى السهل الواقع بين مدينتي (بواتيه) و (تور) وعَبَرَ (شارل مارتل) بجيشه إلى غربي (تور) وعسكر هناك إلى يسار الجيش الإسلامي... ولكن بمسافة قليلة.

كان الجيش الإسلامي – حينذاك – في حالة تدعو إلى القلق والتوجس، فإن الشقاق كان يضطرم بين قبائل البربر التي يتألف منها معظم الجيش، وكانت تتوق إلى الإنسحاب ناجية بغنائمها الكبيرة.

وكان المسلمون في الوقائع قد استهدفوا ثروات (فرنسا) الجنوبية أثناء سيرهم المظفر، ونهبوا جميع كنائسها وأديارها الغنية. وأثقلوا بما لا يقدر ولا يحصى من الذخائر والغنائم والسبيّ، فكانت هذه الأثقال النفيسة تحدث الخلل في صفوفهم وتثير بينهم ضروب الخلاف والنزاع.

وقَدَّر «عبد الرحمن» خطر هذه الغنائم على نظام الجيش وأهبته. وخشي مما تثيره في نفوس الجند من الحرص والإنشغال. وحَاوَلَ عبثاً أن يحملهم على ترك شيء منها، ولكنه لم يشدد في ذلك خفية التمرّد وكان المسلمون من جهةٍ أخرى قد أنهكتهم غزوات أشْهُرٍ متواصلة، منذ دخلوا (فرنسا)، ونقص عددهم بسبب تخلّف حامياتٍ عديدة منهم في كثير من القواعد والمدن المفتوحة، ولكن

«عبد الرحمن» تأهب لقتال العدو وخوض المعركة الحاسمة بعزم وثقة.

المعركة الحاسمة

وبدأ القتال في أواخر شهر شعبان سنة (١١٤) هـ. فنشب بين الفريقين معارك محلية مدى ثمانية أيام إحتفظ فيها كل بمركزه؛ وفي اليوم التاسع نشبت بينهما معركة عامة. فاقتتلا بشدة وتعادلا حتى دخول الليل.

واستأنفا القتال في اليوم التالي وأبدى كلاهما منتهى الشجاعة والجلد. حتى بدا الإعياء على الفرنج ولاح النصر في جانب المسلمين ولكن حدث عندئذ أن افتتح الفرنج ثغرة إلى معسكر الغنائم الإسلامي. وخشي عليه من السقوط في أيديهم...

وتقول الرواية التاريخية:

ارتفعت صيحة مجهول في المراكز الإسلامية بأن معسكر الغنائم سوف يقع في يد العدو، فارتَدَّت قوَّة كبيرة من الفرسان من قلب المعركة إلى ما وراء الصفوف لحماية الغنائم، وتواثب كثير من الجند للدفاع عن غنائمهم، فَدَبَّ الخلل في صفوف المسلمين.

وعبثاً حاول القائد «عبد الرحمن» أن يعيد النظام، وأن يهدّىء روع الجند، وبينما هو يتنقل أمام الصفوف يقودها ويجمع

شتاتها إذ أصابه سهم أودى بحياته...

سقط الفارس قتيلا من فوق جواده...

فعمَّ الذعر والإضطرابُ الجيش الإسلامي، واشتدت وطأة الفرنج على المسلمين، وكثر القتل في صفوفهم، ولكنهم صمدوا للعدوّ حتى أظلم اللّيل، وافترق الجيشان دون فَصلٍ، ودون أن يسجل أحدهما على الآخر هزيمة.

اضطرم الجدال والنزاع بين قادة الجيش الإسلامي، واختلف الرأي، وهاجت الخواطر، وسرى التوجّس والفزع، ورأى الزعماء أن كُلَّ أمَلٍ في النَّصر قد انتهى، فقرروا الإنسحاب على الأثر.

وفي الحال غادر المسلمون مراكزهم، وارتدوا في جوف اللّيل وتحت جنح الظلام جنوباً نحو قواعدهم في (سبتمانيا)، تاركين أثقالهم ومعظم أسلابهم غنيمةً في يد العدو.

ومع الفجر... لاحظ (شارل مارتل) سكون المعسكرات الإسلامية، فتقدم منها بحذر... فألفاها خالية خاوية إلاّ من بعض الجرحى الذين لم يستطيعوا مرافقة الجيش المنسحب، فَذُبحوا على الأثر، وخشي (شارل) الخديعة والكمين، فاكتفى بانسحاب المسلمين ولم يجرؤ على مطاردتهم وتتبّعهم، وآثر العودة بجيشه إلى الشمال.

بلاط الشهداء

عُرفت هذه المعركة في كتب التاريخ – العربية والأجنبية – بمعركة (بلاط الشهداء) . وأجمع المؤرخون جميعاً على أنّها من أعظم معارك التاريخ . وأن استشهاد «عبد الرحمن الغافقي» فيها . مع عَدَدٍ كبير من المسلمين . كان له أكبر الأثر في انحسار موجة الفتح الإسّلامي عن أوروبا كلها .

وهي ولا ريب شبيهة إلى حدٍّ بعيد بمناعة أسوار القسطنطينية التي ظلت زمناً طويلاً تقف حائلاً أمام رغبة المسلمين في اجتياز أوروبا من الشرق .

وما من شكّ في أنّ عوامل كثيرة أحاقت بالجيش الإسلامي هي التي أدَّت إلى إضعافه وتخاذله وخسارة المعركة . ولم تُفْلح كُلّ المؤهلات التي كانت تكوّن شخصية «عبد الرحمن» في التغلّب على عوامل الخسارة والإرتداد . والإنحسار . . .

ورغم استشهادهِ . . !

رضي الله عن «عبد الرحمن الغافقي» . التابعيّ الجليل . والقائد الظافر . والحاكم العادل . شهيد الحق والفتح في أرض (فرنسا) .

رحمه الله . وأجزل مثوبته . وأكرم نُزله . وبوّأه مقام الأبرار الصالحين في جنات النعيم .